بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يقول رسول الله ﷺ : « تركتُ فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى أبداً : كتاب الله وسُنّتى » . . وحتى لا نضل كان حقاً علينا أن نتأمل كتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ كى نكون مسلمين حقاً وحتى نكون فى طاعة رسول الله ﷺ التى هى طاعة الخالق سبحانه وتعالى .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ ﴾ (١) وهذه بديهية مُسَلَّم بها لمن طالَع كتاب الله وتدبر معانيه ، وأنا أدعو كل مسلم يعمل فى أى حقل من حقول المعرفة أن يعى هذه الحقيقة حتى يستطيع أن يُجَلِّيها ، ونقدم لعالَم اليوم العلاج لأمراضه ، وإنى لأخص بدعوتى رجال المال والاقتصاد المسلمين فى العالَم أجمع لأنه لا خلاص من شقاء اليوم لهذا العالَم الذى طغت عليه المادة وسُعارها إلا فى الإسلام .

والإسلام أول تشريع على الأرض يضع نظرية متكاملة للاقتصاد لم يستطع - ولن يستطيع - أن يحيط بشمولها أى نظام اقتصادى وضعى ..

هل خرجت النظريات الاقتصادية عن دائرة الإنتاج والخدمة .. ؟ لكن الله تعالى يقول فى سورة القصص : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .. فهو يحدد المتاع وهو ما يعادل السلعة والخدمة .. الإنتاج والخدمات .. ويضيف الزينة وهى نوع من المتاع لا يندرج تحت مفهوم السلعة .. إنه متاع معنوى كالنياشين والألقاب والمواكب الرسمية وغيرها مما له أثر فى الاقتصاد .

ويقول الرسول ﷺ : « ثلاثٌ مَن فعلهن ثقة بالله واحتسابا كان حقاً على الله أن

---

(١) الأنعام : ٣٨ (٢) القصص : ٦٠

يُعينه ويبارك له : مَن سعى فى فكاك رقبته ، ومَن تزوَّج ، ومن أحيا أرضاً مواتاً » ؟

وفى هذا الحديث يبدأ الرسول عليه الصلاة والسلام بالحرية .. بتحرير العبيد لأن الإسلام يريد مجتمع أحرار لا يذل لأصنام المال أو الشهوات أو المخلوقات.. لأن الإنسان الحر أقدر على الإنتاج من العبد وله من حوافز الإنتاج ما لا يتوفر للعبيد أو تروس الآلات ..

ثم يدعو المسلمين لبناء الأسرة لِبَنَةُ المجتمع حتى يتكوَّن المجتمع السليم النظيف الذى لا تدنسه الانحرافات والأهواء والمفاسد ، وهذا هدف أى نظام اقتصادى فى الحياة .

وأخيراً يطلب منا جميعاً أن نعمل .. أن ننتج فلا نترك أرضاً ميتة بغير إحياء ، ولا رزقاً مما بثَّه اللّه فى الأرض بدون استغلال واستفادة منه لبناء الدولة المسلمة ..

هذا هو الإسلام فى نقائه وصفائه .. فهل آن لنا أن نعود إليه ونتمسك به ونتدبر كتابه ؟ ؟

المعادى فى ١٠ رمضان سنة ١٣٩٤ هـ (٢٦ سبتمبر سنة ١٩٧٤ م) .

عبد السميع المصرى

* * *

مُقوِّمات الاقتصادِ الإسْلامِيّ

يقول تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (١) والأصل فى الزينة أن تكون عَرَضًا من أعراض الحياة لا أصلاً من أصولها ، لكن الإسلام دين الفطرة يُقدِّر ما فى النفس البشرية من ضعف ، ويعلم أن كثيراً من خداع الحياة وأعراضها الزائلة تستأثر بقلوب البشر وتتغلب عليهم .

ومع ذلك فهو لم يبن عدالته الاقتصادية على أُسس مادية بحتة ، بل زاوج بين أسسها التشريعية ورقابة الضمير الإنسانى مستثيراً فى ذلك الضمير أقصى ما يمكن من يقظته الوجدانية : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (٢) غيرَ غافلَ عن الوازع القانونى الذى يردع الضعف الإنسانى .

والإسلام فى اقتصادياته - كما هو فى سائر تشريعاته - يضع الإطار العام ويترك لنا الجزئيات نضعها بما يناسب كل زمان وكل بيئة وما جرى عليه العُرف فى كل عصر ، لكن بحيث لا نخرج عن هذا الإطار العام الذى رسمه المولى عز وجل لأننا اذا خرجنا عن هذه الحدود ضللنا الطريق وسرنا فى تيه من التجارب البشرية ولم نجن من وراء ذلك إلا مزيداً من الضياع والشقاء وبعدنا عن الإسلام والطمأنينة والعدالة التى يسعى الإسلام الى إقامة المجتمع على أُسس منها .

والإسلام فى اقتصادياته - كما فى سائر توجيهاته - دين يدعو الى الرقى الإنسانى . إنه يضع التشريع العملى الذى يكفل حماية المجتمع والحدود الدنيا أو القصوى التى لا يجوز للأفراد تجاوزها والتى يُلْزَم بها الناس .. وفى نفس الوقت يدعو الناس إلى التسامى ومجاهدة النفس لتصل إلى ما هو أعلى وأكمل وأقرب إلى اللّه تعالى من هذه الحدود الجبرية والقوانين الملزمة .. يدعو إلى السمو اللائق بمنزلة الإنسان الذى نفخ اللّه فيه من روحه وفضلّه على كثير من

---

(١) الكهف : ٤٦ (٢) سورة ق : ٣٧

خلقه ورفعه عن درك الحيوان لتكون أهداف حياته وحوافزه أسمى وأرفع من دوافع الحيوان وأعلى من المادية البحتة وليكون وجدانه هو دائماً القوة المكملة للتكاليف الكفيلة بتنفيذها عن رضا وإقبال .

فالإسلام فى اقتصادياته يزاوج بين المادية والروحية ليُقَدِّم للعالَم أكمل نظام فى الوجود يدعو إلى السلام ويبنى على التعاون والتراحم بين الناس .

ويقول الحق تبارك وتعالى فى أول سورة النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ، وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (١) .

فأول ما تشير إليه هذه الآيات الكريمة هو أن الله تبارك وتعالى قد خلق الناس من نفس واحدة فالنفس هى الأصل والجسد عارض ، والحياة الأبدية هى الأهم والحياة الدنيا القصيرة الفانية هى السبيل الى الغرض الأسمى .. وهو الفوز فى الآخرة بالنعيم فى جوار رب كريم .. ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلاَ تَبْغِ الفَسَادَ فِى الأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ المُفْسِدِينَ ﴾ (٢) أى أن يكون هدفنا وتصرفنا فى كل ما آتانا الله وفق ما يُرضى الله وبإحسان كما أحسن الله إلينا وأن نعمل دائماً فى كل ما أعطانا ربنا ناظرين إلى حساب الله وجزائه الذى ينتظرنا فى الآخرة حياتنا الأبقى والأطول غير ناسين نصيبنا فى الدنيا .

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ (٣) والبث لغة : هو النشر والإكثار ، فالمفهوم من قوله تعالى أنه سينشر أبناء آدم فى صورهم المتكررة فى الأرض فى كل زمان ومكان بعد أن وضع فيهم فطرتهم الواحدة ووضع لحياتهم سُنَّته الأبدية التى لا تتغير منذ أن خلق أباهم آدم عليه السلام ، وأول هذه السُنَن تقوى الله

---

(١) النساء : ١ (٢) القصص : ٧٧ (٣) النساء : ١

وخشيته حتى يستقيم نظام الكون فلا يطغى قوى على ضعيف ولا يبغى حاكم على محكوم ولا يظلم الناس بعضهم بعضاً . ثم الأرحام التى يُقْسِم الناس بها ويتساءلون فيما بينهم بحقها والتى تقيم التراحم بينهم وتؤسس حياتهم على المودّة والتعاطف لا على الحرب والغلاب والعداء للطبيعة التى سُخِّرت من أجلهم أو عقيدة البقاء للأصلح التى لا تصلح إلا لحيوان الغاب .

ولقد خلق اللّه سبحانه وتعالى آدم فى الجنة وقدَّم له فيها كل ضمانات الحياة وكرَّمه ورفعه فوق مخلوقاته جميعاً وأمر الملائكة أن تسجد له فسجدوا إلا إبليس أبَى .

﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١) * إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلاَ تَضْحَىٰ ﴾ (٢) .

تأمل هذه الآيات الكريمة .. فبعد أن كرَّم المولى تعالى آدم حذَّره من عدوه إبليس حتى لا يُخرجه من الجنة فيشقى فى الأرض بالعمل فى سبيل الرزق وفى سبيل الحياة ومسئولياتها من دفاع عن النفس وعن الأسرة وإعالة الأولاد وتربيتهم وغير ذلك من المسئوليات التى أُعفى منها بإقامته فى الجنة ، لكن آدم عصى ربه فوجد نفسه فى الأرض عرياناً ، وهنا تذهلنا تلك المعجزة الإلَهية فى قول اللّه : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَىٰ ﴾ (٣) ..

لقد قرن الجوع بالعرى ويمدنا العلم الحديث بالتفسير لهذه العلاقة . فالطعام يمدنا بالطاقة اللازمة للجسم لأنه الوقود الذى تدار به العمليات الحيوية بالجسم

---

(١) خوطب الفرد فى فعل « فتشقى » بعد أن كان لآدم وزوجه ، فمن الجائز أن يكون المقصود بالخطاب فى « فتشقى » الجنس البشرى عامة نساؤه ورجاله ، كما يجوز أن يكون المقصود بالشقاء العمل للرجل فقط دون المرأة بفرض أن العمل أصلاً للرجل واستثناءً للمرأة وبذلك قال بعض المفسرين : « العمل معصوب برأس الرجل » ، وبعض رجال الاجتماع المحدَثين استناداً إلى أن وظيفتها الفسيولوجية تمنعها من مواصلة الكدح فى سبيل الرزق فأشهر الحمل تعوقها وفترة النفاس ومدة الرضاعة وفترات الطمث وهذه الوظائف نفسها تستنزف جزءاً كبيراً من طاقة الأعضاء الحيوية .

(٢) طه : ١١٧ - ١١٩ (٣) طه : ١١٨

بل إن كل طعام يتحوّل فى الجسم إلى سُعر حرارى لذلك عندما يقل الغذاء يستشعر الجسم مزيداً من الحاجة الى الكساء ، وهكذا الطفل عند مولده نُكثر عليه من الأغطية لقلة غذائه وكلما تقدم فى العمر وازداد طعامه شعر بحاجته إلى الملابس تقل فيتخفف منها حتى إذا ما تقدمت به السن وضعفت صحته - ولا سيما المعدة - وبدأ ينتقى ويتحفظ فى غذائه عاد ثانية إلى الملابس فزاد منها طبقات حرارية فوق جسمه .

وهذه الآيات ليست دلالتها على ما بين الملبس والمأكل من صلة ، ولا ما بين الحرارة والعطش من صلة ، بل إنها تحدد لنا الضرورات الأولية للحياة الآدمية على الأرض من مأكل وملبس ومسكن يقى صاحبه تقلبات الأجواء ويحفظ عليه آدميته .. هذه الضرورات أو الحد الأدنى للحاجات البشرية هى التى كلّف الإسلام الدولة برعايتها والتحقق من وجودها لكل فرد من رعاياها حتى تستطيع عندئذ أن تقيم حدود الإسلام على الخارجين عليها وقد سماها فقهاء المسلمين حد الغِنى وهو ما يُطلق عليه اليوم « الكفاية » .

ولقد علم الاسلام أن المساواة المطلقة فى الدخل بين الناس أمر مستحيل ولا يستقيم مع أوضاع الحياة لأننا لو أعطينا صاحب الحرفة الصغيرة التى لا يتحمل صاحبها فيها المسئولية الكبيرة أو لا يتعرض للأخطار أجراً مساوياً لمرتب صاحب العمل الكبير أو مَن يتعرض لأخطار الموت فى عمله لتكالب الناس جميعاً على الحِرَفِ الصغيرة الهيِّنة ولم يُكَلِّفوا أنفسهم عناء المسئوليات أو مواجهة الأخطار .

إن النظام الشيوعى الذى بدأ بشعار : « من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجاته » انتهى إلى أن أكبر مرتب فى الدولة يعادل خمسة وثلاثين ضعفاً من أصغر مرتب فى الدولة بعد أن ثبت لهم فشل هذه المساواة المزعومة [1] .

---

(١) وقف خروشوف فى مؤتمر الحزب الشيوعى لعام ١٩٦١ أى بعد ٤٤ سنة من قيام النظام الشيوعى فى روسيا يبشر الناس بأنه : فى خلال عشرين عاماً أخرى ستتحقق الشيوعية المثالية فى روسيا : « لكل حسب حاجته » بعد أن بدأ إنتاج الكماليات .. وفى إحصائية بيير لاروك =

لكن الإسلام رسم الصورة الصحيحة الكلية والإطار العام للمجتمع الإنسانى الذى لن تستطيع الخروج عليه مهما حاولنا ، بل يجب أن ننظم مجتمعنا فى داخل هذا الإطار ونعمل على أن يكون مجتمعنا مترابطاً متحاباً فى حدود النظام الإسلامى الذى كفل قيام هذا المجتمع .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِياً ، وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (١) .

هذا حكم إلَهى وسُنَّة من سُنَن الكون ولن تجد لسُنَّة اللّه تبديلاً ، فعلى البشرية إذن أن تعيش داخل هذا الإطار ووفق القواعد العامة التى وضعها الإسلام ملائمة لفطرة الخلق التى فَطَرَ اللّه الناس عليها بعد أن فشل النظام الرأسمالى ومحاولات أصحابه للتخفيف من حدة مساوئه بنظام الضرائب التصاعدية .

« فطبيعة هذه الحياة البشرية قائمة على أساس التفاوت فى مواهب الأفراد كالصوت والذكاء ، والتفاوت فيما يمكن أن يؤديه كل فرد من عمل ، والتفاوت فى مدى إتقان هذا العمل .. وهذا التفاوت ضرورى لتنوع الأدوار المطلوبة للخلافة فى هذه الأرض . ولو كان جميع الناس نسخاً مكررة ما أمكن أن تقوم الحياة فى هذه الأرض بهذه الصورة ولبقيت أعمال كثيرة جداً لا تجد لها مقابلاً من الكفايات ولا تجد مَن يقوم بها ، والذى خلق الحياة وأراد لها البقاء والنمو خلق الكفايات والاستعدادات متفاوتة تفاوت الأدوار المطلوب أداؤها ، وعن هذا التفاوت فى الأدوار يتفاوت الرزق .

أما رحمة ربك فهو يختار لها مَن يشاء ممن يعلم أنهم لها أهل ولا علاقة بينها وبين عَرَض الحياة الدنيا ولا صلة لها بقيم هذه الحياة الدنيا . فهذه القيم

= الفرنسى أن أكبر مرتب بروسيا يعادل خمسين مرة أصغر مرتب ... والآن بعد العشرين عاماً التى وعد بها خروشوف ماذا حققت روسيا ؟ إنها فى ظل جنة الشيوعية تتسوّل القمح من العالَم الرأسمالى !!

(١) الزخرف : ٣٢

عند الله زهيدة زهيدة ، ومن ثَمَّ يشترك فيها الأبرار والفجّار ، بينما يختص برحمته المختارين » [1] .

والمنهاج الاقتصادى الإسلامى - كما فى سائر التشريعات الإسلامية - لم يفصل بين العبد وربه ، ولم يفصل بين الحياة الدنيا القصيرة والحياة الأخرى الأبدية ، بل وربط بين هذه وتلك ، فإن كان الله قد قسّم معيشة الناس بينهم « فى الحياة الدنيا » فرفع بعضهم فوق بعض حتى تستقيم الحياة على الأرض وحتى يُقبل كل انسان على العمل الميُسر له فالزارع على الزراعة ، والتاجر على التجارة ، وعامل المنجم يعمل تحت الأرض ، والطيار يرتفع فى أجواء الفضاء ، والأجير وصاحب العمل وغيرهم وغيرهم وهم جميعاً مُسخّرين لبعض وفى خدمة بعضهم بعضاً على أساس من الكفاءة الذاتية كما يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [2] .. ولا الغنى الموروث والطبقات الزائفة التى يحكى عنها القرآن الكريم فى قوله : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [3] .. فإن التفاضل الحق هو بالتقوى التى تُقَرِّب العبد من الرب : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [4] والجزاء الأوفى هو رحمة ربك وهى خير مما يجمعون ، وهذا هو أساس التوازن فى المجتمع .. التوازن الذى ينشده الإسلام فى كل شىء والذى قَدَّره الخالق فى خلقه .. فعن الأرض مثلاً يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ [5] .

وفى الإنسان استمر التوازن بين عدد النساء والرجال على مدى آلاف السنين رغم الحروب التى تقتل الرجال ، ومع ذلك فالتوازن مسألة نسبية يتحقق بها الوضع الأمثل .

﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴾ [6] .. وهو قول

---

(١) فى ظلال القرآن ، لسيد قطب جـ ٢٥ ص ٧٨ - ٧٩ .

(٢) الأنعام : ١٢٤ (٣) الزخرف : ٣١ (٤) الحجرات : ١٣

(٥) الحجر : ١٩ (٦) فصلت : ١٠

حق ليس بعده اجتهاد لمجتهد أو نظرية اقتصادية افتراضية تُنذر الناس بالفقر بينما قد وعد الله بالرزق للجميع .. أجل ، فقد خلق الله تعالى كل شىء فى حالة وفرة .. لا توجد نُدرة موارد على الأرض كما يزعمون ولا نُدرة أبداً : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّواْ نَعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ (١) لكن النُدرة تأتى من جشع الإنسان الذى يسعى إلى تبريره بتلك المذاهب الاقتصادية التى يلفقها على هواه والتى تعمل جميعها على سحق الفرد ..

مَن قال إن غلة الأرض الزراعية لا تكفى الإنسان ؟ كيف وعشرات الملايين من الأفدنة فى السودان والعراق وغيرها فى منطقتنا العربية فقط من الأرض الصالحة للزاعة تُتْرَك جرداء لأن الحدود السياسية والنظم الاقتصادية تحول دون استغلالها .. وهى تكفى لمئات الملايين من السكان .. ؟

مَن قال إن هناك نُدرة ونحن نرى الدول العظمى تحارب بعضها بالتجويع أو تلقى بفائض حاصلاتها للبحر أو النار وتحرم منه البشر ؟

مَن قال إن فى السمك نُدرة وهو يملأ البحار ؟ لكن الإنسان يُفَضِّل الغواصات وحاملات الطائرات وأسباب الهلاك على سفن الصيد . لأنه يريد أن يحمى ما عملته يداه من نظم ظالمة .. يريد أن يحمى التكتلات الاقتصادية - البترول والحديد وغيرهما - فى النظم الرأسمالية ، ويريد أن يحمى طبقة رجال الدولة والحزب فى النظم الاشتراكية التى سمحت بوجود مائة واثنين وثمانين مليارديرا ممن يملكون أكثر من ألف مليون جنيه فى الحزب الشيوعى اليوغسلافى ...

لكن الاسلام يريد لأمته أن تكون أمة وَسَطاً ، ويدعو الفرد إلى التوازن فى سلوكه الاقتصادى والاعتدال ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾ (٢) .

ويأتى بعد ذلك ما تضمنه المنهاج الإسلامى من قواعد تكفل التراحم بين الناس وإقامة المجتمع على أسس من التعاون والمودّة والإخاء فجعل فى أموال

---

(١) النحل : ١٨ (٢) الإسراء : ٢٩

الغنى حقاً للسائل والمحروم .. إنه حق لا صدقة ولا تفضل ولا مَنٌّ .. هذا الحق من أهم العوامل الحركية فى اقتصاد الإسلام التى تحفظ عليه حيويته وتصحح أخطاء العوامل الاقتصادية عندما تنطلق على سَجِيَّتها .

ثم بسط المسئولية .. فكل مسلم مسئول فى مجتمعه مسئولية فردية كما يقول الرسول ﷺ : « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » وكما يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَاخْشَوْا يَوْماً لاَ يَجْزِى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِه ﴾ (١) فالتبعة فردية والحساب شخصى وكل نفس مسئولة عن نفسها ولا تُغنى نفس عن نفس شيئاً .. هذا هو المبدأ الإسلامى العظيم مبدأ التبعة الفردية القائمة على الإرادة والتمييز من الإنسان وعلى العدل المطلق من الله وهو أقوم المبادىء التى تُشعر الإنسان بكرامته والتى تستجيش اليقظة الدائمة فى ضميره فتفرض عليه مسئولية جماعية هى مراقبة الجماعة فى تنفيذ النظام الإسلامى تنفيذاً لما فرضه الله علينا من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر .

فالمنهاج الإسلامى يُحَتِّم الحرية الفردية ويشجع الفرد على العمل ولا يضن على القطاع الخاص بحمايته وتشجيعه ، لكنه يدعو الفرد أيضاً إلى أن يرحم أخاه ويُشركه فى فضل ماله فيستل الحقد من الصدور ويزرع المحبة والتراحم بين أفراد المجتمع الإسلامى ، والشعار الذى يهيمن على المجتمع كله ويربطه بالقوة العليا هو : ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٢) .

أى أن المال ليس هدف الحياة ولا ينبغى أن يُشغل الإنسان عن ربه أو يُشغل قلبه عن دينه لأن للحياة قيماً أعلى من الثروة . وقناطير الذهب والفضة لا ترفع من شأن الإنسان ، والمال فى نظر الإسلام وظيفة اجتماعية خطيرة لأنه « ليس لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليت ، أو تصدقتَ فأمضيتَ » (٣) أما ما زاد على ذلك فأنت مسئول عنه من أين اكتسبته ؟ وفيم أنفقته ؟ وأين وضعته ؟ وماذا أفاد إخوة لك فى البشرية منه ؟

---

(١) لقمان : ٣٣ (٢) الزخرف : ٣٢

(٣) حديث صحيح .

فإذا كان الإسلام قد أقرَّ التفاوت فى الرزق والمال فى الحياة الدنيا ، فلأن ذلك ضرورة من ضرورات المجتمع ونظام الحياة على هذه الأرض .

ويجب ألا ننسى هنا فى مجال هذه النظرة الاقتصادية أن الإسلام لا يجعل المال أساس الحياة أو أساس تقييم الناس ، بل إن الإسلام جاء بالمساواة المطلقة بين الناس والتحرر من جميع القيم والاعتبارات السابقة وجعل أساس التفاضل بين الناس هو التقوى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) .. التى تربط العبد بالملأ الأعلى ، فإذا عزل عمر خالد من إمارة الجيش وهو العربى المزهو بنفسه والقائد الذى لم ينهزم رضىَ بأن يعمل جندياً فى صفوف المجاهدين بنفس الحماس لأنه لا يعمل عند عمر بل يجاهد فى سبيل الله .

وبهذه الروح تزوجت زينب بنت جحش القرشية الهاشمية من زيد مولى النبى ﷺ .

وبهذه الروح جلس الناس للإمام أبى حنيفة يتلقون عنه العلم وهو خزّاز ، وجلسوا للإمام الخصّاف أحمد بن عمر مهير الذى يعيش من خصف النعال لأن العمل لا يخدش منزلة العامل ولا يخفض من قدره فى المجتمع الإسلامى ، ولأن المال ليس هو أساس التفاضل بين الناس .

كما يجب أن نذكر أن الإسلام هو تشريع سماوى له صفة الخلود وصبغة الثياب لأنه من لَدُن العليم الخبير الذى يعلم من أسرار خلقه ما يعملون ، وإذا أمعنا النظر فيما جاء به الإسلام ألقينا أنفسنا أمام نظرية اقتصادية متكاملة تكفل سعادة البشر وتحقق لهم أرقى مستويات الرفاهية .

وهذه النظرية نلمس أساسها فى قوله تعالى : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ (٢) أى حتى لا يتكدس المال لدى طبقة من الناس دون سائر الطبقات .

---

(١) الحجرات : ١٣ (٢) الحشر : ٧

أو بعبارة أخرى : إن نظرية الإسلام الاقتصادية بنيت على التقريب بين الناس فى الدخول وكانت الوسيلة هى توزيع الثروة وإعادة توزيعها باستمرار حتى يتجنب المجتمع الإسلامى كوارث الحرب بين الطبقات وعواقب تكدس المال لدى فئة دون فئة أُخرى من الناس .

كما جعلت العمل أصل المال ، فلا يلد المال المال ، لذلك يحرص الاسلام على إلغاء فائدة رأس المال مهما قلّت : ﴿ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ ﴾ (١) بل لم يُعلن اللّه الحرب ويتوّعد بها إلا آكلى الربا فقالَ تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (٢) .

أما التطبيق العملى للنظرية فقد كان طريقه التعاون ، وأصدق وصف له هو قول الرسول ﷺ : « مَثَلُ المسلمين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحُمّى والسهر » .

أخيراً .. يجب أن نذكر دائماً أن المنهاج الاقتصادى الإسلامى فيه المصلحة الحقيقية للناس ، وفيه صلاح معاشهم ومعادهم ، وفيه الرحمة كل الرحمة لعباد اللّه لأن اللّه يقول لنبيه الكريم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٣) ، ويقول تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) ، ويقول جل شأنه : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٥) ، كما يقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِى الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦) .

ثم يضع الرسول ﷺ القاعدة الخالدة التى لا تخطىء فى تشريع مال أو اجتماع أو علم بقوله : « لا ضرر ولا ضِرار » وهى أساس إجماع فقهاء الشريعة على أن :

---

(١) البقرة : ٢٧٩ (٢) البقرة : ٢٧٨ - ٢٧٩ (٣) الأنبياء : ١٠٧
(٤) التوبة : ١٢٨ (٥) الحج : ٧٨ (٦) يونس : ٥٧

« كل ضرر مؤكد مدفوع ، وكل مصلحة مؤكدة مجلوبة ، وأن أحكام النصوص مشتملة على مصالح العباد ودافعة لأضرارهم ، وما تكثر منفعته وتقل مضرته يكون مندوباً ، وما يكون الضرر فيه مؤكداً فهو حرام ، وما يغلب الضرر فيه يكون مكروهاً على مقدار ضرره ، وما يتساوى فيه النفع والضرر يكون مباحاً ، وعند التعارض بين الواجبات يُقَدَّم أقواها نفعاً ، وما لا يقبل التأجيل [١] ، وعند التعارض بين المحرَّمات والاضطرار إلى واحدة يُقَدَّم أقلها ضرراً ، فمَن تردد بين الموت جوعاً وأكل مال الغير أكل من مال الغير ولو بالإكراه » .

والخلاصة .. أن نظرية الإسلام الاقتصادية هى التقريب بين الناس فى الدخول على أساس :

١ - أن العمل هو الأصل فى الاقتصاد الإسلامى ومنهاجه .

٢ - الحرية الفردية وتبعتها على الفرد ، ويُقَيِّد هذه الحرية حد الإضرار بالغير .

٣ - المسئولية الجماعية - أى مسئولية الجماعة عن تحقيق الحياة الكريمة لجميع أفرادها عن طريق التعاون والتراحم حتى يتم التوازن المنشود فى المجتمع وتتحقق للمجتمع ضوابطه .

٤ - المال مال اللّه ، ولا بد أن يُوَجَّه إلى ما يُرضى اللّه غاية كل مسلم ، بمعنى أن الاقتصاد فى الإسلام هو الوسيلة التى تنظم المعاملات والعلاقات المادية فى المجتمع الإسلامى ليسير على نهج اللّه الذى يحقق رسالة البشر على الأرض .

* * *

(١) من بحث لمحمد أبو زهرة بمجلة لواء الإسلام - يناير ١٩٦٥